الجمع بين القراءتين

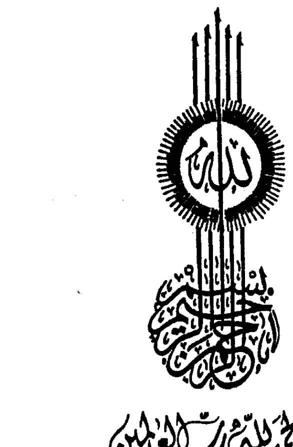
قراءة الوحي وقراءة الكون

بقلم

أ. د. طه جابر العلواني

رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي





الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين

وقل رب زدني علما

الجمع بين قراءتين

قراءة الوحي وقراءة الكون

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى .

وبعد...،

فبين يدي القارىء رؤية معرفية للجمع بين القراءتين قراءة كتاب الله المسطور (الوحي) وقراءة كتاب الله المنظور (الكون) كمصدرين للمعرفة البشرية المتزنة الواعية ، والتي يشير إليها تكرار الأمر بالقراءة في أول ما نزل من القرآن الكريم ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم** ﴾ *فكرر الأمر مرتين مرة باسم ربك الذي خلق ومرة باسمه سبحانه حيث علم بالقلم .*

هذه الرؤية المعرفية التي يقدمها لنا الأستاذ الدكتور طه جابر العلواني نموذج للدراسات الجادة التي تثير الفكر وتطبق الرؤية المنهجية المعرفية لإسلامية المعرفة في كيفية رسم الأطر الكلية من ناحية والتعامل مع القرآن الكريم وتفاعله مع الواقع من ناحية أخرى ، ويبين بطريقة عملية البعد عن المناهج المرفوضة في التعامل مع التراث الإسلامي ومع فكر الآخر الإنساني ، وهي :

١- مناهج القبول المطلق المؤدي إلى التبعية سواء أكانت في الانخراط في مسائل الماضي والوقوف عند مشكلاته بما يشبه الغياب التام عن واقعنا ومشكلاتنا ، أم كانت في التقليد الأعمى بنفسية القطيع للغرب وثقافاته التي تكونت من خليط من الرؤى المحرفة للوحي أو من رؤية مادية للكون والإنسان والحياة .

٢- مناهج الرفض المطلق الذي حيرمنا من التراكم المعرفي ويدخلنا في إطار التعصب الساذج وضياع الحقيقة الواقعية ويحول بيننا وبين العدل الذي أمرنا به ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ .

٣- مناهج الانتقاء العشوائي التي تؤدي إلى طرق المقاربات والمقارنات والتلفيق والتوفيق وغيرها من الأساليب غير العلمية والتي لا يرضاها عند التأمل أي منصف .

إن الكتاب الذي بين أيدينا اليوم تطبيق عملية ونموذج يحتذى به في طريق بناء النظام المعرفي الإسلامي ووضع لبنات المنهجية بما يشتمل عليه من إشارات وتوضيحات وطريق للجمع بين القراءتين وعرض للأفكار الجديدة ، وكيف تستفيد وتحافظ على صلتها بالقرآن والسنة ، وتحدد موقفها من التراث والآخر وتنبثق من نظامها منهجيتها المعرفية .

عسى الله أن ينفع به الأمة وأن يكون نقلة نوعية في طريق الكتابات الإسلامية الجادة ، الواعية وخطوة في طريق الخروج من المأزم والمأزق الفكري المعاصر .

القاهرة : أول رجب الأصم ١٤١٥هـ

أ. د. علي جمعة محمد

أستاذ أصول الفقه - جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن للامة الإسلامية ـ والشعب العربي بمثابة القلب منها ـ خصائص عديدة ، ومزايا متنوعة في مقدمة هذه الخصائص أنها :

(١) أمة القراءة ، فقد بدأ تكوينها بكلمة "اقرأ" ، لا بكلمة " قاتل أو افتح لتقاتل ذلك الشعب" بل كانت البداية أمرا بالقراءة : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ (١) (العلق:١-٥)

(٢) الخاصية الثانية : إن الحضارة الاسلامية التي صنعتها هذه الأمة حضارة كونية إنسانية عالمية أسسها وبناها الكتاب الكريم لا شيء آخر . فاذا رثت أو تقادم بها العهد أو طال على أهلها الأمد وقست منهم القلوب فإن المدخل إلى تجديدها وإصلاحها هو القراءة كذلك .

وبذلك حددت مهمة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى : ﴿ **هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين** ﴾ (الجمعة : ٢).

ودعوة سيدنا إبراهيم كانت : ﴿ **ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ (البقرة : ١٢٩)

وقال جل شأنه ممتنا علي عباده المؤمنين : ﴿ **لقد من الله علي المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين** ﴾ (آل عمران :١٦٤).

وقال جل شأنه : ﴿ **فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله اليكم ذكرا (١٠) رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ...** ﴾ (الطلاق:١٠-١١)

وقال : ﴿ **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة (١) رسول الله يتلو صحفاً مطهرة** ﴾ (البينة :١-٢) ، ونفى عنه صلى الله عليه وسلم صفتا الجبرية والتسلط فقال : ﴿ **لست عليهم بمصيطر** ﴾ (الغاشية :٢٢) ﴿ **وما أنت عليهم بجبار** ﴾ (ق:٤٥) وليظهر دين الهدي ودين الحق علي يديه بين الناس فيعم الهدي والسلام الارض كلها ويدخل الناس في السلم كافة . كان من خصائص رسالته صلى الله عليه وآله وسلم العموم والشمول والعالمية ، والربانية والتوازن والمنهجية المعرفية .

(٣) الخاصية الثالثة أنها الأمة الجامعة الحافظة لتراث النبوات ، المؤتمنة عليه :﴿ **والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير (٣١) ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير** ﴾ (فاطر٣١-٣٢)

(٤) الخاصية الرابعة هي التوحيد الخالص ، فهذه الأمة تتفرد من بين سائر الامم بالاحتفاظ بصورة نقية من التوحيد الخالص ، توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الصفات وهو التوحيد الشامل الذي جاء به الانبياء كلهم ، وأن الإسلام ـ بمعناه العام المطلق ـ هو دين التوحيد الذي جاء به جميع الانبياء وسائر المرسلين ، وأنه اذا كانت التحريفات والانحرافات قد غيرت وحرفت كثيرا من رسالات الانبياء ، والتصورات الدينية السليمة التي جاءوا بها ، فإن

الله ـ تعالى ـ قدْ تكفل بحفظ التراث التوحيدي النبوي كله في العقائد الإسلامية وأصولها وأودع سائر قواعدها في الكتاب المعجز الخالد ـ القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ليبقي التوحيد معيارا وميزانا قادرا على بيان الحدود والفواصل بين الألوهية والعبودية . الألوهية ينفرد الله تعالى وحده بكل خصائصها ، والعبودية التي يتجرد الناس كل الناس فيها من خصائص الألوهية كلها ، ليكونوا عبادا لله متساوين في كل شيء بين يديه محررة قلوبهم وعقولهم من سائر المؤثرات الأخرى ، يدركون أنهم مستخلفون في هذا الوجود ليقوموا – جميعا ــ بمهمة لا تتم بدون علم ومعرفة ومنهج واستقامة وتوازن وعدالة وأمانة وشريعة وقراءة شاملة مستمرة للوحي والكون (٢) .

مفهوم القراءتين (٣) :

إن القراءة التي ورد الأمر الإلهي بها قراءة محددة المعالم ، واضحة الاتجاه ، فإن الامر قد ورد مرتين بقراءتين :

القراءة الاولى : قراءة باسم الله تعالى لهذا الوحي النازل الذي سيتتابع نزوله حتى يتم قرآنا كريما مجيدا مكنونا مفصل الآيات تتلوه يا محمد على الناس وتبينه لهم ليتعلموا منه الحكمة والهداية والرشد فتزكو نفوسهم ، وتطهر حياتهم ويهتدوا به في أداء مهام الاستخلاف والقيام بواجب الائتمان وحق العمران . وحين رد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بأنه ليس بقارىء لاشك أنه فهم المطلوب وهو قراءة ما سيملى عليه وهو لا يعرف القراءة والكتابة وليس له من العلم ما يقرؤه ، ولكنه تعالي ربط القراءة " باسم ربك" فكأنه قال له: إنك لن

تكون وحدك في أداء هذا الفعل الذي لا تعرفه بل سيكون معك ربك الذي أعطاك الكثير وهو قادر علي أن يعلمك كيفية أداء ما أمرك به ويزيد علي ذلك كما علم آدم الاسماء كلها ، وكما علم ابراهيم وموسى وعيسى وسواهم من النبيين والرسل فاستعن به في القراءة يعينك ويصحبك ويكن معك فيها وفي بيانها وتعليمها وإقامة الحجة بها على الناس .

وذكر الرب ـ جل شأنه ـ ووصفه بالخلق وذكر خلق الانسان بالذات فيه طمأنة لرسول الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ بأن منحه القدرة على القراءة ليس بالأمر الصعب علي ربه الذي خلق كل شيء وخلق الانسان من علق . كما أن في ذكر الخلق تهيئة لذهنه الرشيد ونفسه الشريفة ــ صلى الله عليه وسلم لبيان النوع الثاني من القراءة ، الا وهي قراءة الخلق ودراسة الوجود ، فهما ــ إذن ـ كتابان تجب قرائتهما : كتاب منزل متلو معجز وهو القرآن ، وكتاب مخلوق مفتوح وهو هذا الخلق والكون بدءا من الإنسان ، ولابد من قراءتهما ــ معا ـ لتوجد المعرفة الحضارية الكاملة التي تمكن الإنسان من القيام بمهام الاستخلاف وأداء حق الأمانة ، والقيام بمقتضيات العمران . وهي معرفة لا تقوم على التلقي وحده بل على الأخذ عن الغير بالمراجعة والمطالعة وقراءة الكتب وكتابتها وتناقل الخبرات والمعارف بين البشر ، واستعمال القلم ـ الذي علم الله به وجعله وسيلة للمعرفة وتبادلها وإنمائها وتناقلها .ثم ما يمن الله ـ تعالى به من معارف تنقدح بها العقول من مستنبطات ومخترعات وغير ذلك مما يندرج تحت قول الله تعالي :" علم الإنسان ما لم يعلم " فهناك مصدران للمعرفة الإنسانية يتضافران في توصيل الإنسان إلى معارف الشهود الحضاري ، والقيام بمهام العمران والاستخلاف في هذا الكون ، ولابد من الجمع بينهما فيفهم القرآن العظيم ومدلولاته بالخلق وبالوجود ويفهم الكون ويهتدي في أداء

مهام الخلافة فيه ، والقيام بمقتضيات الأمانة بالقرآن المجيد ونور هدايته . ولابد من قراءة المصدرين وتنفيذ الأمر بالقراءتين : قراءة الوحي النازل المتمثل في الكتاب الكريم المحدد لغاية الحق من الخلق ، المنبه على السنن الحاكمة لهذا الوجود ، الموضح للمنهج والشرعة ، والحقائق الأساسية.

وقراءة كونية شاملة لآثار القدرة الإلهية ، وصفاتها وخلق الانسان وسائر الظواهر الكونية ، وملاحظة ربوبية الباري جل شأنه وكرمه البالغ في خلق الإنسان واستخلافه ، وائتمانه على الكون ، وندبه لإعماره ، وتسخيره.

والقرآن المجيد المكنون بهذه الآيات الكريمات وما يرتبط بها قدم في الماضي أنجح الحلول لأزمة الانسان المعرفية في عصر التنزيل ، تلك الازمة التي عرفت " بالجاهلية " وبالظلمات ، ولا يزال ـ وحده ـ القادر علي تقديم مفاتيح الحلول المعرفية لأزمة العالم المعرفية المعاصرة أو جاهلية القرن الميلادي العشرين .

فبالجمع بين القراءتين ، وإخراج القلم الوضعي عن دائرة نزقه وطغيانه وربطه بالقراءة الأولى وهو ما كتب به :﴿ **ن والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون** ﴾ (القلم : ١-٢) يسترد العلم والمعرفة من دوائر الاستلاب الوضعي ، فالرحمن وهو الذي ﴿ **علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان** ﴾ (الرحمن ٢-٤).

وبذلك وضع الميزان وعهد إليكم ﴿ **ألا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان** ﴾ (الرحمن :٨ -٩) . ﴿ **فهو الذي أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾ (النحل:٧٨) .

فعلمه ـ وحده ـ العلم المحيط الكامل الشامل ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم** ﴾ (البقرة:٢٥٥) .

فهو سبحانه ﴿ **قد أحاط بكل شيء علما** ﴾ (الطلاق :١٢) أما الناس فأكثرهم لا يعلمون وإذا علموا شيئا فإنهم ﴿ **يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾ (الروم :٧) وبذلك فإن أزمة العالم المعرفية اليوم لا مخرج منها إلا منهجية القرآن المعرفية فلا نبي بعد محمد ولا كتاب بعد القرآن ﴿ **ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا ، فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا** ﴾ (الفرقان : ٥١-٥٢)

فالقراءتان في الوحي وفي الكون فريضتان ، لأنهما أمران إلهيان ، والجمع بينهما ضروري ، إذ بدونه يقع الخلل : فمن تجاوز القراءة الأولى واستغرق استغراقا كليا في القراءة الثانية التي تمثل علم المكون او ميتافيزيقا الكون ــ فقد العلاقة بالله ، وتجاهل الغيب وانطلق بفلسفة وضعية منبتة عوراء قاصرة في مصادرها تحاول أن توحد بين الإنسان والطبيعة ، وتعتبر الخالق والغيب كله مجرد ما ورائيات أو ميتافيزيقا إذا كانت قوة غيبية قد مارست خلقا أو إيجادا فقد تكون مارسته بقوة الدفعة الأولى ، ثم تناسيته أو نسيته ليستمر الكون بعد ذلك فاعلا ومنفعلا بشكل آلي كما ذهب الي ذلك أرسطو في القديم ونيوتن وغيره في الحديث ، وحين يحلو لبعض أصحاب هذه الفلسفة أن يتذكروا الباري جل شأنه فإنهم قد يتذكرونه ولكن بشكل حلولي يزعم أن الله ــ تعالى ـ قد حل في قوى الطبيعة ذاتها وذاب فيها ليتحول إلى جزء حال فيها لينتهوا بعد ذلك الي المادية الجدلية ـ التي أنكرت الخالق تماما وطرحت بدائل له

من اتجاهات النمو عبر خصائص التطور المادي المعقد ليشعر الإنســان باندماجـه الكامل بالطبيعة ككائن طبيعي ، وهنا يبدأ الإنسان الشعور بالغنى أو الاسـتغناء عن خالقه جل شأنه ، لأنه لم يعد يرى غير الطبيعة أمامه فهي كل شـيء وهـي وراء كل شيء وهو في ظاهر الأمر قادر على قهرها : فلا يراها وهـي مسـخرة مقهورة بسنن الله تعالى بل يراهـا كـون مسـتقل أي امتـداد غيـبي ، وآنـذاك لا يشعر أن الله تعالى قد سخرها له وأنه الخالق له ولها ، بل يرى أنه نفسه الفـاعل المبدع المتعدد القدرات المسيطر على الطبيعة المفجر لكوامن ما فيهـا : فـالكون مهيأ مسخر للإنسان ، والإنســان مـزود بـالقدرات التمكينيـة الذهنيـة والعقليـة والعلمية التي تمكنه من تسخير الكون ليقوم بأمانة الاسـتخلاف ، وحـين يغفـل الإنسان أو يعشو عن ذكر الرحمن ولا يرى القـدرة الإلهيـة في ذلـك كلـه مـن خلال هداية الوحي يشده الشعور بالاستغناء ، والإحســاس بـالقدرة والإبـداع إلى أن يجعل من علاقته بالكون علاقة تسـلط وقهـر وصـراع ، وتفقـد عنـاصر الطبيعة علاقتها الودية بالإنسان ، وكونه المخلوق المستخلف المؤتمن ، وكونهـا المخلوقة المسخرة لهذا المؤتمن والمستخلف ، وكلاهما في المخلوقية والعبوديـة لله تعالى سواء " والله خلقكم وما تعملـون" ، فيتخـذ الوجـود ــ آنـذاك ــ شـكل القوى المتصارعة المتنابذة ، ويتخذ الإنسان الغافل شكل المتأله المسـيطر بـالعلم على كل شيء فيمجد ذاته ويتخذ إلهه هواه ، يستمد قيمه من الطبيعة . وحتـى الأديان تتحول عنده إلى شيء يوظف عندما تدعـو الحاجـة لسـد ثغـرة أو تلبيـة رغبة ، أو أداء خدمة . وهنا يحق عليه القول : ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى** ﴾ (العلق : ٦-٧) فيقع في الاسـتبداد والطغيـان (٤) ، وتحـدث كوارث البيئة ، ويظهر التلوث والفساد في البر والبحر والجو بما كسـبت أيـدي الناس ويختل التوازن وتظهر أمراض الانحراف والشـذوذ في المعمـورة ، فقـارات

يعمها الجوع والخراب وأخرى تعمها الأمراض بكل أشكالها ، والجرائم بكل أنواعها . وتسود المعيشة الضنكة :﴿ **ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾ (طه:١٢٤)

وقد يقنع الغافلون عن ذكر الرحمن أنفسهم بأن ما يحدث ضريبة طبيعية لازمة لا مناص للراغبين في التمتع بالمعطيات الحضارية من احتمالها ودفع قيمتها الفادحة .

أما إهمال القراءة الثانية ، أي قراءة الوجود والكون والاقتصار على قراءة الوحي وحده منقطعا منبتا عن الوجود ، فإنه يؤدي إلى نفور من الدنيا ، واستقذار لها ولما فيها ، يشل طاقات الإنسان العمرانية والحضارية ، ويعطله عن أداء مهام الخلافة والأمانة والعمران ، ويحول بينه وبين التمتع بنعمة التسخير ، ويعطل فكره وينتقص من قيمة فعله ، بل قد يلغي فعله فلا يرى الإنسان نفسه فاعلا في شيء ولا يرى لوجوده في الحياة معنى وكل هذه الأفكار منافية تماما لمنهج القرآن العظيم .

إن تجاوز القراءة الثانية في الكون وإهمالها أو عدم جمعها مع الأولى يؤدي إلى ظهور العجز الإنساني الحضاري وتعطل طاقات الإنسان وإلى خلط عجيب بين قضايا عالم الغيب وعالم الشهادة وقد يتوهم المقتصرون على القراءة الأولى أن تنزيه الباري جل شأنه لا يتم إلا إذا ألغيت قيمة الفعل الإنساني ، ونفيت إرادته واختياره . واستلب استلابا لاهوتيا كهنوتيا من دوره .

والناظر في مقالات الإسلاميين في الماضي وكتب الفرق الإسلامية يجد في مقالاتهم العجب العجاب في قضايا الخلط بين الفعل الإنساني والفعل الإلهي والإرادة الإنسانية وقضايا الاختيار والعلل والأسباب وسواها وذلك الخلط الذي أدي إلى كثير من الغبش والاضطراب في النظام المعرفي الإسلامي .

إذن لابد من الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الوجود والدمج بينهما لئلا يقع الإنسان في أي من ذينك الطرفين الذميمين ومن هنا كان ما سميناه ب" إسلامية المعرفة " ضرورة معرفية ، وضرورة حضارية لا على المستوى الإسلامي وحده ، بل على المستوى العالمي كله للخروج من المأزق المعرفي المعاصر ، والأزمة الفكرية العالمية المعاصرة : فبعد تكريس البعد المنهجي في التفكير واجهت الحضارة الغربية ـ نفسها ـ مشكلة تحديد الصياغة المنهجية لحضارتها ومعرفتها صياغة تستند إلى تطور الغرب العلمي بكل جوانبه ولقد كانت الماركسية محاولة لإيجاد هذه الصياغة في إطار المادية الجدلية ، وها هي الماركسية تنهار بانهيار الاتحاد السوفييتي قبل أن يجد الغرب البديل العرفي والمنهجي لها لتبقى الحضارة الغربية دون صياغة فلسفية بديلة ، ودون إجابات عن معظم الأسئلة النهائية المعلقة التي يشيح علماء اليوم بوجودهم عن الإجابة عنها . أما أزمتنا نحن العرب والمسلمين فهي أشد وأنكى ، فنحن شركاء في الأزمة العالمية من ناحية لأن علاقتنا بها لم تعد علاقة برانية أو هامشية كما يتوهم البعض ـ فالحضارة المعاصرة قد نجحت من خلال غزوها الفكري والثقافي والمؤسسي أن تفرض علينا وعلى العالم كله منهجها ووعيها العلمي والمفاهيمي للوجود وللحركة الكونية كما فرضت على الجميع ورؤيتها للتاريخ والعلم والمعرفة والحضارة والثقافة والتقدم والتخلف وغيرها ، فما هي حقيقة " إسلامية المعرفة " التي نقترحها حلا لأزمتنا المعرفية والفكرية وأزمة العالم معنا؟

توجد إسلامية المعرفة وتتحقق من قراءة كتابين ، وتؤسس على مقابلتهما والكشف عن التكامل ، والمنهجية في البحث والاكتشاف بينهما : الكتاب الأول وهو كتاب الوحي المقروء، ونعني به (القرآن) ، والكتاب الثاني وهو كتاب الكون المتحرك الذي يتضمن ظواهر الوجود كافة . فالقرآن العظيم و

الكون البديع كلاهما يدل علي الآخر ، ويرشد إليه ويقود إلى قواعده وسننه فالقرآن يقود إلى الكون ، والكون أيضاً يقود إلى القرآن ، وهذا ما أضفنا عليه (الجمع بين القراءتين) ، قراءة تبدو غيبية في إطار الوحي في الكون ، وقراءة موضوعية من خلال الكون وعناصره في الوحي . فقراءة الوحي بمثابة تنزل من الكلي إلى الجزئي ، وبما تتيحه القدرات البشرية النسبية من الفهم لتنزلات الكلي ، وقراءة المون بمثابة تطلع من الجزئي باتجاه الكلي وفق قدرات البشر النسبية أيضا على فهم الظواهر ، فلا يقع الفصام المزعوم بين معطيات الوحي ونتائج المعرفة الموضوعية . وهذا ما أكدته بدايات التنزيل في سورة العلق : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق (١) خلق الإنسان من علق (٢) اقرأ وربك الأكرم (٣) الذي علك بالقلم (٤) علم الإنسان ما لم يعلم (٥)** ﴾ (العلق: ١-٥) .

تلك أهمية الجمع بين القراءتين بإيجاز شديد . أما حين يحدث الفصام بين القراءتين فإن المناهج المعرفة البشرية تقود إلى نتيجتين خطيرتين : فالذين يتعلقون فقط بالجانب الغيبي في القراءة ، أي بالقراءة الأولى في الوحي فإنهم يسقطون الجانب الموضوعي وعناصره من حسابهم فيتحولون بالدين إلى لاهوت وكهنوت يستلب الإنسان والكون وينفي الأسباب وقوانين الحركة وصيرورتها وكافة السنن الاجتماعية والتاريخية والاقتصادية التي يتفاعل معها الإنسان وبذلك ينتهي أصحاب هذه القراءة إلى فكر سكوني جامد قد يحسب خطأ على الدين حين لا يلتفت إلى محدوديته وقصوره .والذين يتعلقون بقراءة الكون ـ وحده ويركزون على الجانب الموضوعي في إطار القراءة الثانية ، فإنهم ينفون البعد الغيبي الفاعل في الوجود وحركته وينتهون تدريجيا إلى الفكر الوضعي في المعرفة الذي يؤثر علي النسق الحضاري بدوره ذلك التأثير السلبي .

وهكذا تنقسم البشرية وتتمزق وتتصارع بين اللاهوت الكهنوتي والوضعية الملحدة أو الجاهلة في حين أوائل التنزيل في سورة العلق تنفي اللاهوت عن الغيب حين تربط ما بين هذا الغيب والقراءة الثانية ، أي القراءة الموضوعية بالقلم . كما تنفي عن القراءة الموضوعية نهاياتها الوضعية حين تشدها إلى القراءة الأولى ، كما أنها تؤكد أن القارىء في الحالتين وللقراءتين هو الإنسان المؤمن بالوحي الفاقه له من ناحية ظواهر الوجود الكوني وحركته في الوقت ذاته . فلا يقع استلاب للإنسان ولا إخلال بمركزيته ولا تجاوز لدوره .

إن الفصل بين القراءتين جعلا البشرية تعاني الكثير من أنواع الفصام في مناهجها التربوية ونظمها التعليمية بين علوم الدين والعلوم الكونية و لم تتوصل أمة من الأمم المعاصرة بعد إلى الصيغة التي تؤهل الطالب ليجمع بين العلمين في آن واحد . سبب ذلك سيادة المناهج الغربية في الفصل بين العلمين على مستوى العالم ، فطالب الوحي يذهب إلى كليات اللاهوت ، وطالب العلوم الكونية يذهب إلى كليات العلوم التطبيقة كما هو جار في الغرب ، أما لدينا فالفصل قائم بين كليات الشريعة والدعوة وأصول الدين وكليات العلوم الحديثة ، أو العلوم الاجتماعية والإنسانية فضلا عن العلوم التطبيقية .

هذا الفصل بين القراءتين الذي أدى إلى ذلك الفصام المنكر يحمل خطورة أخرى ، إذ يباعد بين العلوم الشرعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، حيث طورت المناهج الوضعية علاقتها بهذه العلوم الإنسانية والاجتماعية وصاغتها وفق القراءة الثانية فقط وأبعدتها عن تأثير العلوم الشرعية وهداية الوحي كما أن حملة العلوم الشرعية أو النقلية فقدوا الكثير من قدرتهم على التأثير في هذه المجتمعات المتغيرة المعقدة في تراكيبها حين جعل بين علمهم والعلوم الاجتماعية والانسانية وما تقدمه من عون على فهم هذه المجتمعات وطرائق التعامل مع

قضاياها وهذا يمثل تنبيها على أهمية العلاقة بين علوم الوحي والعلوم والمعارف الاجتماعية والإنسانية ، وهناك مجالات عديدة من علوم النفس وعلوم الثقافات الإنسانية والأنساق الحضارية المختلفة التي تبدو الحاجة إلى الجمع بين القرائتين منها أشد وأقوى ، فالجمع بين القرائتين ضروري لتكوين ثقافة المسلم المعاصر وبشكل يختلف عن النسق الغربي الأوروبي الذي انتهي إلى ثنائية اللاهوت والوضعية وتصارعهما وتنابذهما . إن خطورة هذه الثنائية المفتعلة والمتطرفة ، إنها وإن قامت علي الفصام فإنها دفعت بعض الأنساق الحضارية دفعا نحو الاتجاه الوضعي حين غيبت النظرة الكلية للكون والحياة والإنسان وارتباط قيم الإنسان وأخلاقه بالله سبحانه وتعالى ، فتضخمت الذاتية البشرية على حساب القيم العقلية والأخلاقية ، وأهم ثمرات الدين مكارم الأخلاق ، إن ذلك التضخيم المفتعل للذاتية البشرية قد اتخذ وسيلة تبرير الصراعات القومية والصراعات الاجتماعية كما تم تبرير الفردية الليبرالية إلى أقصى حد وبذلك تكرس الصراع بكل مظاهره بدلا عن السلام الذي تعطيه القيم ، وما ذلك إلا لأن الإنسان رأى نفسه مستغنيا عن كل شيء حتى عن الذي خلقه ، ومن يستغني عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يطغى في الأرض ، ويتطاول بناصيته على كل من يدعوه للقيم والأخلاق ، ولهذا تم الربط بين بدايات التنزيل في سورة العلق الداعية للجمع بين القراءتين وأزمة الطغيان والتطاول الإنساني للأنساق الحضارية الوضعية المتعالية بتطورها العلمي التطبيقي المجرد : ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى (٦) أن رآه استغنى (٧) إن إلى ربك الرجعى (٨)** ﴾ (العلق :٦-٨) فقضية الجمع بين القراءتين مسألة منهجية في المعرفة وتقود إلى نتيجة حضارية ، فالذي يجمع بين القراءتين لا يستغني عن الله لأنه يدرك دوما

افتقاره لله ـ سبحانه وتعالى ؟ فلا يستبد ولا يبتغي علوا في الارض ولا فسادا ولا يطغي .

كيفية الجمع بين القراءتين :

إن المدخل الأساسي للجمع بين القراءتين يبدأ باكتشاف العلاقة المنهجية بين الناظم المنهجي لآيات القرآن من ناحية وبين السنن والقوانين المبثوثة في الوجود وحركته من ناحية ثانية مع الناظم المنهجي الذي يربط بينها. فالقرآن وحي إلهي نتعقل به ونتفهم هذا الوجود انطلاقا من أن القرآن مطلق ومحيط وشامل ، وبقدر ما تتسع معرفتنا للاثنين معا بقدر ما تتكون لدينا القدرة على الجمع بين القراءتين واكتشاف التداخل المنهجي بين الوحي والكون ، فمنهجية القرآن هي منهجية الوجود ، والمطلوب عدم الاقتصار على قول ذلك نظريا ولكن ينبغي اكتشاف ذلك تطبيقيا . فالقول النظري قد لا يتجاوز حالة تبشر بفرضية قد تكون غير صحيحة أو مما يمكن الطعن فيه ، ولهذا يكون التحدي الأول والأهم للمسلم المعاصر هو التداخل المنهجي من خلال الجمع بين القراءتين بين الوحي الإلهي والعلوم الطبيعية والإنسانية القائمة على السنن الإلهية في الكون والحياة والإنسان . أما الحديث عن عظمة القرآن فإن القرآن عظيم حقا ومعجز فعلا ، وقد كتب الناس عن عظمته وإعجازه آلاف الصفحات ، بل ملايينها ، لكن تلك الكتابات لم تستطع أن تكشف للناس عن منهجيته المستوعبة للكون وحركته والقادرة على إقامته على قواعد الهدي ودين الحق . كما لم تؤد إلى الكشف عن التداخل المنهجي بين قراءة القرآن وقراءة الكون . فقد بقيت آيات كريمة كثيرة ومقولات دينية عديدة عرضة

لتأويلات شتى . وفي كثير مـن تلـك التـأويلات تبـدو الإسـقاطات الإسـرائيلية ونحوها واضحة . كذلك بقيت في المعارف الإنسانية والاجتماعية الحديثة ، بـل وفي العلوم الطبيعية المعاصرة كذلك أبعاد غائية ، وأسـئلة كثـيرة حـيرى لا تجـد مـن مـدارس تلـك العلـوم المختلفـة إجابـات شـافية ، لأنهـا لم تكتشـف ذلـك التداخل المنهجي بين القراءتين إلا في حدود جزئية تمثلـت في محـاولات انتقائيـة يغلب علـى بعضهـا التلفيـق الـذي يجعلهـا تبـدو مفتعلـة إلى حـد كبـير كتلـك المحاولات التي تبدو فيما عرف مؤخرا بـ " الاعجاز العلمي " (٥) .

فتأكيدنا الدائم على وجوب الجمع بين القراءتين ، واعتبار ذلك شرطا مسـبقا للخروج من الأزمة الفكرية والمعرفية في مستوياتها العالمية والمحلية يحمل توكيدا على وجوب الالتفاف إلى ذلك الارتباط المنهجي بين القرآن والكون والإنسـان لتكتمل حلقات التصور الإسلامي وتظهر سـائر مقوماته وتـبرز علاقـة الغيـب بالطبيعـة والإنسـان ، ويتخلـص الإنسـان مـن مأسـاة الفصـام بـين اللاهـوت والناسوت أوبين الدنيا والآخرة ، أو بين التنزيل الإلهي و الوضعية البشـرية ومـا جره ويجره ذلك الفصام النكد من مشكلات .

إن هذه المهمة لا يستطيع النهوض بها إلا من أوتي القرآن وحظا مـن العلـوم والمعارف كافيا لاكتشاف ذلك التداخل المنهجي بين القرآن والكون والإنسان ولذلك أرسيت قواعد " إسلامية " على الدعائم التالية :

(١) إعادة بناء الرؤية الإسلامية المعرفيـة القائمـة علـى مقومـات وخصـائص التصور الإسلامي السليم ليتضح ما يمكن اعتباره النظام المعرفي الإسلامي القـادر علي الإجابة عن الأسئلة الكلية النهائية ، دون تجاوز شـيء منهـا ، وبنـاء قـدرة ذاتية على النقد المعرفي الذي يمكـن مـن الاسـتيعاب والتجـاوز بشـكل منهجـي

منضبط ، في الوقت نفسه يعطي القدرة على التوليد المعرفي المنهجي . والتفسير المعرفي الذي لا يقوم على الإقناع والخطابة بل على المعرفة المنهجية التامة .

(٢) إعادة فحص وتشكيل وبناء قواعد المنهجية الإسلامية على ضوء " المنهجية المعرفية القرآنية " وعلى هدي منها .

فإن أضرارا بالغة قد أصابت هذه المنهجية نتيجة القراءات المفردة والتجزيئية التي قرأت القرآن عضين ، وقرأت الوجود والإنسان في معزل عنه قديما وحديثا وليتمكن العقل المسلم من تجاوز تلك الأمراض الفكرية التي شلت فاعليته كالاضطراب في فهم علاقة الغيب بالشهادة وعلاقة النقل والعقل وعلاقة الأسباب بالمسببات وغير ذلك من أمور .

(٣) بناء منهج للتعامل مع القرآن المجيد من خلال هذه الرؤية المنهجية وباعتبار القرآن مصدرا للمنهج والشرعة والمعرفة ومقومات الشهود الحضاري والعمراني وقد يقتضي ذلك إعادة بناء وتركيب علوم القرآن المطلوبة لهذا الغرض ، وتجاوز الكثير من الموروث في هذا المجال من المعارف التي أدت دورها في خدمة النص القرآني . فالإنسان العربي قد فهم القرآن ضمن خصائص تكوينه الأولى التي كانت بسيطة في بداياتها ومحدودة اجتماعيا وفكريا في إطار لغوي ومعطيات نقلية تجعل الأهمية الأولى لصحة النقل وتوثيق الرواية بالطرق المتعارف عليها لديه والتي كانت تمثل أرقى المعرف في طرق التوثيق في عصره وحين التدوين الرسمي للعلوم والمعارف النقلية الإسلامية التي دارت حول النص القرآني والحديث النبوي بروت تلك الخصائص فيما دون من علوم ومعارف . كما ظهرت إلى جانبها خصائص العقلية البلاغية واللغوية العربية في تلك المرحلة وما تقتضيه من اتجاه نحو التجزئة باتجاه الجمل والتراكيب مع ملاحظة المفردات فتلك كانت هي المنهجية السائدة ، ولذلك اعتبر الفهم

الذي تولد عنها مقبولا وكافيا في تلك المرحلة ، أما في المرحلة العالمية الراهنة حيث تسيطر عقلية الإدراك المنهجي للأمور والبحث عن علاقاتها الناظمة لها بطرق تحليلية ونقدية توظف الأطر والقواعد العلمية المختلفة ، وتربطها بموضوعات حضارية متشعبة وعلاقات متنوعة فلابد من إعادة النظر في علوم وسائل فهم النص وخدمته وقراءته قراءة الجمع مع الكون والتداخل المنهجي معه ، وتخليصه من كثير من أنواع التفسير والتأويل المتعلق بتلك المراحل ، والربط الوثيق بالنسبي من خلال الإسقاطات الإسرائيلية وغيرها ، والربط التام بأسلوب السنزول والمناسبات وحتي تظهر وجوه التحدي بالقرآن العظيم ، ووجوه إعجازه ينبغي أن يضاف إليها ــ الآن ــ البعد الاجتماعي والمنهجي ليتحقق التحدي الدائم به ويبرز إعجازه الذي هو الدليل المنهجي الأول علي إطلاقيته .

(٤) بناء منهج للتعامل مع السنة النبوية المطهرة ــ أيضا ــ من خلال تلك الرؤية المنهجية وباعتبار السنة النبوية المطهرة كذلك مصدرا لبيان المنهج والشرعة والمعرفة ومقومات الشهود الحضاري والعمراني فقد كانت مرحلة النبوة وعصر الصحابة مرحلة تعتمد على الاتصال المباشر برسول الله صلى الله عليه وسلم ومتابعته والتأسي به فيما يقول أو يفعل :" خذوا عني مناسككم " صلوا كما رأيتموني أصلي " والاتباع والتأسي يعتمدان على التحرك العملي لرسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم – في الواقع . فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم – كان يجسد بسلوكه القرآن على الواقع والربط بين النص والحياة . التطبيق النبوي والبيان المحمدي كانا يضيقان الشقة تماما بين مكنونات المنهج الإلهي القرآني وبين الواقع بعقليات أهله وقدراتهم الفكرية والمعرفية وبشروط ذلك الواقع الاجتماعية والفكرية في إطار السقف المعرفي السائد فيه .

ولذلك كان الرواة من الصحابة – رضوان الله عليهم – حريصين على أن لا تفوتهم أية جزئية تتعلق بحياة رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – لأن ذلك هو البديل الوحيد عن الوعي بالمنهج الناظم للقضايا المختلفة ولذلك اشتملت السنة على ذلك الكم الهائل من أقوال وأفعال وتقريرات رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم–وتلقينا كل تلك التفاصيل التي تجعلنا قادرين على أن نتابع حركته اليومية عليه الصلاة والسلام في غدوه ورواحه وسلمه وحربه وتعليمه وقضائه وقيادته وفتواه ، وممارساته الإنسانية بطريقة تكشف عن أسلوبه أو سنته عليه الصلاة والسلام في التعامل مع الواقع ، وتكشف – اضافة لذلك – عن خصائص الواقع الذي كان رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – يتعامل معه ويتحرك فيه . وهو واقع لاشك مغاير للواقع الذي نحياه في تركيبته وعقليته.

لقد كان عليه الصلاة والسلام في سنته يمثل تجسيدا للربط بين المنهج القرآني والواقع ، ولذلك فإن من الصعب فهم الكثير من القضايا في معزل عن فهم ذلك الواقع الذي كان عليه الصلاة والسلام يتحرك فيه ، فحين ينهي عليه الصلاة والسلام عن النحت والتصوير ويعتبر المصورين أشد الناس عذابا يوم القيامة (٦) فلا ينبغي أن يفهم نهيه عن ذلك أنه موقف عام مطلق من الجماليات المجسمة يتعارض مع فهم نبي الله سليمان الذي كان يجند الجن يضعون له ما يشاء من تماثيل ، ولا مع تساؤلات المعاصرين ومجادلاتهم في هذا الموضوع ونحوه بأننا لا نشعر بالرغبة أو الاستعداد في عبادتها فلماذا يحرم التصوير علينا ؟ولا يكون الحل بفتوي جزئية تحل هذا النوع من التصوير وتمنع ذلك ، بل يلاحظ فيها المنهج الذي أشارعليه الصلاة والسلام إليه في مواقف عديدة مثل " لولا قومك حديثو عهد بكفر لفعلت ولفعلت "(٧)

لقد كان رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم – يعمل علي قطع دابر صناعة الأوثان والترويج لها بين قوم حديثي عهد بها ، ولابد من الوصول إلي المنهج الناظم الضابط لمثل هذه القضايا وقراءتها قراءة معرفية تخرج الأحاديث النبوية والسنن إلى دائرة المنهج بدلا من حصرها في دائرة الجزئيات المتصارعة التي كثيرا ما يحولها المختلفون إلى أقوال جزئية قد تدل على الشيء ونقيضه وكأنها أقوال أئمة المذاهب المختلفة . لقد ارتبط العرب في مرحلة نزول القرآن بمفهوم الاتباع والاقتداء واتخذوا من رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم – قدوة عملية جسدت لهم المنهج طبقا لشروطهم الواقعية الحياتية وعبر الاتباع والاقتداء نشأت مفاهيم التعامل مع " المأثور والمنقول " وفي محاولة للتخفيف من الآثار التي نجمت عن ذلك التعامل الجزئي لجأ من لجأ إلى التأويل الباطني والتفسير الرمزي والإشاري كمخرج من التقيد بحرفية المأثور ولكن ما زاد ذلك الأمر إلا اضطرابا وثارت بعد ذلك مشكلات حجية السنة جملة أو حجية بعض أنواعها وغير ذلك من قضايا لا نزال نعاني منها . ولو أنه تم الوصول إلى المنهج القرآني للتعامل مع السنة الذي يضبط التعامل معها في سائر التفاصيل والجزئيات ولفهمت في إطار المنهج قضاياها الجزئية من خلال إطار تبين المقاصد واتضاح الغايات .

إن العقلية المعاصرة عقلية تبحث – باستمرار – عن الناظم الموضوعي للأمور ، وتحاول النفاذ إلى المنهجية الكاملة الأبعاد فضمن هذه المنهجية يصبح التحليل والتفكيك والنقد والتفسير هو الإطار الموضوعي للحركة الفكرية في تعاملها مع النصوص والقضايا الكونية والمحلية . وبهذه المنهجية يمكن النفاذ إلى مقاصد القرآن المجيد وتفهم السنة النبوية دون الوقوع في إطار ماضوية سكونية أو تأويلات باطنية ، أو محاولات تجديدية تحاول إحداث تعديلات أو تأويلات

لتطبيقات الماضي لتعيد إنتاجها في الحاضر فكأنها تعبير عن الماضي في ثوب جديد .

(٥) إعادة دراسة وفهم تراثنا الإسلامي وقراءته قراءة نقدية تحليلية معرفية تخرجنا من الدوائر الثلاث السائدة التي تحكم أساليب تعاملنا مع تراثنا –في الوقت الحاضر –: دائرة الرفض المطلق له ودائرة القبول المطلق ودائرة الانتقاء اللامنهجي . فهذه الدوائر الثلاث لا يمكن أن تحقق التواصل مع ما يجب التواصل معه من هذا التراث ، كما لا يمكن أن تحقق القطيعة مع ما يجب إحداث القطيعة معه من ذلك التراث .

(٦) بناء منهج للتعامل مع التراث الإنساني المعاصر –أيضا – أو ما يعرف " بالتراث الغربي "يخرج تعامل العقل المسلم معه من أساليب التعامل الحالية التي تخلفت عن أطر ومحاولات المقاربات ثم المقارنات ثم المقابلات والمعارضات لتنتهي بالرفض المطلق ، أو القبول المطلق بروح مستلبة تماما أو الانتقاء العشوائي المتحيز له أو عليه ، فهذه الخطوات أو المحاور أو المهام الستة هي التي أطلقنا عليها "إسلامية المعرفة ، أوو المنهج التوحيدي للمعرفة أو أسلمة العلوم الاجتماعية والإنسانية وتوجيه العلوم الطبيعية وجهة إسلامية أو التأصيل الإسلامي للعلوم (٨) ، فنحن لأول مرة نجد أنفسنا أمام وضعية عالمية تعمل على توظيف المعارف والعلوم واكتشافات العلوم ومنجزاتها توظيفا يفصم العلاقة بين الخالق والكون والإنسان ، وذلك بطرح تصورات حول الوجود يبدو بعضها نقيضا لتصوراتنا الإسلامية ، وقد تكون هي كذلك وقد لا تكون ، إذ ليست القضية أن ننتقي من مقولاتنا الدينية ما يتوافق مع تلك التصورات لنقول : إنها لدينا من قبل ، أو نرفضها وندمغها بالكفر . فمنطلقنا ومنذ الأساس تجاه العلوم الكونية ليس منطلقا لاهوتيا أو كهنوتيا ، وليس

مطلوبا منا أن نقتدي بغيرنا ، لأن تجربتهم في مواجهة العلم ومنجزاته تختلف عن تجربتنا ، فلو كان القرآن لاهوتا لما جازت فيه إلا قراءة البعد الواحد ، أي القراءة الأولى فقط ، وقد أمرنا بخلاف ذلك ، فنحن لا نصارع العلم لأننا ندرك أن الوحي في الكون الكتابي هو ذات الوحي في الكون الطبيعي ولكل منهما أسلوب ومنهج قراءة يخصه ، فإذا ظهرت انحرافات أسندت إلى العلم ، فالمطلوب هو تطهير العلم منها ، وإذا ظهرت انحرافات في التفسير والتأويل فيجب حماية النص منها وهذا أساس الجمع . إذ لم يكن الدين من قبل يواجه سوى فكر عقلي وضعي مجرد و لم يكن مسلحا بالعلم التطبيقي المعاصر ونتائجه التي أدت إلى قيام مذهبيات تجاوزت الوضعية التقليدية ، فالمطلوب منا – كما أمرنا – استرجاع أو استرداد العلم من هذه المذهبيات وتطهيره وإعادة توظيفه وتنقية علوم خدمة النص مما ألحق بها أو أضيف إليها ، لتستقيم القراءة وتتحقق إمكانات الجمع بين القراءتين .

المهمة قرآنية وكذلك عالمية :

هذه المهمة– المتمثلة " بإسلامية المعرفة " مهمة عالمية وإن تصورها البعض مهمة في إطار الخصوصية الجغرافية والبشرية ، فنحن جزء متفاعل بعالم اليوم ، لا بغزوه الثقافي ، فذاك أمر كان سائدا في القرنين – الثامن والتاسع عشر ، ولكن تفاعلنا مع عالم اليوم يتم بغزو العلم التجريبي التطبيقي الذي يتطلب منا جهدا في الأسلمة يعادل جهد أسلافنا الكرام في مواجهة الغزو الفكري الذي دق ابوابنا مع الثورة الفرنسية ، إذ كنا نواجه وقتها حالة عقلية مجردة ، وبإمكانيات الوضعية العقلية المحدودة ، أما الآن فإن المواجهة مع عقل علمي

تجريبي أعاد صياغة العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية كلها فإما ان تتحول إلى موقف الدفاع اللاهوتي العاجز ، وإما أن تتحول إلى العمل على اختراق النسق الحضاري والثقافي المعاصر من خلال أسلمة العلوم والمعارف كلها برؤية قرآنية كونية وجامعة ، فكافة هذه العلوم التجريبية لا زالت تتعثر في انطلاقتها مقيدة إلى الجزئي و لم تأخذ بعدا كونيا يحتويها ، والبعد الكوني كامن في الوحي القرآني ﴿ **إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ، لخل السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ (غافر :٥٦-٥٧).

ومع كون المهمة عالمية يتأكد - أيضا-كونها قرآنية ، فأمام التدافع الديني وإفلاس الأنساق الحضارية العالمية وختم النبوة وبروز الأزمات الفكرية والمعرفية يتصدر القرآن وحده معركة شاملة باعتباره كتاب وحي مطلق ، ليستمر في عطائه وكرمه بعد أن توقف الآخرون ، فهي معركة اختبار لنا في مدى فهمنا لمنهجية القرآن وقدرتنا على الهيمنة الحضارية به على مختلف مناهج العلوم عبر الجمع بين القراءتين ، فالعلوم المعاصرة قد بلغت اليوم مرحلة تفكيك الظاهرة إلى حدود اللامتناهي في الصغر وتسبح في كون لا متناه في الكبر ، فلم تعد الظواهر كما فهمها الأقدمون من أسلافنا بل وتمثلها العالم كله - تلك الظواهر الشاخصة والمجسدة أمام العين الناظرة ، فالحواس التي كانت هي وسيلة التعقل أفسحت المجال لحواس مجهرية وألكترونية أعطت مفهوما جديدا للظاهرة فإذا فهم الأقدمون الذرة كحبة رمل مرئية - فإن الذرة اليوم بمجهرية قد تحول

معناها مما يبصر إلى ما لا يبصر ﴿ **فلا أقسم بما تبصرون ، وما لا تبصـرون** ﴾ (الحاقة ٣٨-٣٩) .

حيث فهم الاقدمون الأطوار التاريخية فهما تعاقبيا تكراريا ، فإن الأطوار اليوم صيرورة وتغيرات كيفية وليست تغيرات كمية فقط (٩) وهذا هو الفـارق بـين السببية العلمية المعاصرة ، فالسببية المعاصرة صيرورة وتحـولات كيفيـة بالدرجـة الأولى .

اسلامية المعرفة والمصير الإنساني :

ليست قضيـة " إسـلامية المعرفـة " -إذن - مجـرد تـرف نظـري أو محاكـات فلسفية فإنها حين تطرح ضرورة الجمع بين القراءتين فإنما تفعـل ذلـك ليخلـص الفكر البشري من أذمة اللاهوت المستلب للانسان والطبيعة ، وليخلـص بـذات الوقت من الإطار الوضعي للأفكار العلمية التي تفصم العلم عن خالقـه ، فلكـل من المنهجين آثاره و إسقاطاته علـى حيـاة الإنسـان ونسـقه الحضـاري ومبادئـه وتشريعاته ، فإسلامية المعرفة -عند التأمل الجـاد لهـا مقدمـة (بديـل حضـاري عالمي) لا يستهدف المسلمين فقط بل يستهدف إصلاح أجمـع ، وهـذه مهمـة تتطلب العديد من البحوث المميزة تنطلق من بحوث ودراســـــات في القـرآن العظيم نفسه فهم جديد ومن منظور علمي وعالمي منهجي ، وهذه هي " مهمة اسلامية المعرفة الأساسية ".

إنه بدون فهم القرآن فهما منهجيا في اطار وحدته وبنائيته الكاملة فهما يتصل وينعكس علـى فهمنـا المنهجي المعـاصر للظواهـر الكونيـة وسـنن حركتهـا في وحدتها البنائية يستحيل تأسيس إسلامية المعرفـة فمنهجيـة العـالم المعـاصرة مـن

شأنها أن ترد الكثرة إلى الوحدة وتحلل الظاهرة " بحثنا عن العلاقات والسنن الكامنة فيها وفيما وراءها "ولا تكتفي بتفسيرها والقرآن (المكنون والمجيد والكريم) قابل في وحدته البنائية الكلية لهذا الفهم المنهجي ، بحيث ندرس الكتاب الكريم بمثل المنهجية التي يدرس بها العلماء الكون العظيم ، وكما ذكرت بعقلية علمية عالمية .

لاشك أن – هناك –أزمة لابد من تجاوزها والتغلب عليها وتبدو هذه الأزمة في أن العقل العلمي العالمي المعاصر يرفض كل الكتب الدينية وإذ يتسامح مع بعض موضوعاتها ، فإنه يصمم على رفض منهجيتها ووحدتها البنائية وإطارها الغائي مؤكدا على أن اختصاص الكتب الدينية يجب أن يتوقف عند القناعات الإيمانية وغيبيات ما وراء الطبيعة . وبالتالي فإن الجمع بين القراءتين – الغيب والموضوعية – يبدو في نظر هؤلاء العلويين مستحيلا طالما أن هناك مقولات في الكتب الدينية تتعلق بالغيب فإنه لا مجال لاتخاذها مصدرا من مصادر العلم ، وإلا تم تزييف أحدهما أو تلفيقه ، فكل ما تشير إليه الكتب السماوية من كائنات غير مرئية أوبعض القصص التاريخي الذي لا يخضع لاختبارات العلم الوضعي المعاصر لا يملك إعطاءه الصفة العلمية ولذلك خرجت اليونسكو على العالم بتعريف للمعرفة ينص على أنها " كل معلوم خضع للحس والتجربة "

إن هذا المنطق يصدر عن فهم خاطيء لم يلاحظ قضية الجمع بين القراءتين فغاية الجمع بين القراءتين أن تنتهي إلى (فهم كوني) للوجود لا يقتصر على القراءة الثانية بمفردها ، فلو اكتفينا بالقراءة الثانية فقط سنبقي في حدود الإطار الوضعي للفكر ومقولاته حول الوجود ، ولمارسنا مفهوما يعتمد على تفكيك الظاهرة وتجزءتها بمنطق الجدلية العلمية المعاصرة واحتماليتها ونسبيتها . وهنا تبرز محاذيرالقراءة الثانية المنفردة ، أو أنها تنتهي بنا إلى فكر وضعي جزئي لا إلى

فكر كوني . أما حين نجمع القراءة الثانية مع الأولى فإننا نتدرج من الجزئي الموضعي المحدود إلى الكلي في إطلاقه الكوني بما فيه من ظواهر مرئية وغير مرئية ، فكل رفض لما يسمونه بالغيبيات والماورائيات هو رفض للقراءة الأولى ، القراءة الكونية – في الوحي – باسم الله خالقا ، فالوحي كلي مطلق يستوعب الجزئي والقراءة الاولى تأخذ بعين الاعتبار كل الغيبيات والماورائيات كجزء أساسي في المنهج لا باعتبارها بمجرد مسلمات يجب الإيمان بها فقط ولكن باعتبارها دليلا على وجود كوني أكبر من معطيات القراءة الثانية وهذا ما يعطي الخلق حقيقته الكونية المتكاملة ، فاستبعاد الغيبيات هواستبعاد للقراءة الأولى التي نجد عند البحث أم لكل قضية من قضاياها دلالاتها على مستوى الوجود والخلق الكوني فهي ليست أساطير أولين كما يتوهم البعض ، بل هي أمور ثلبتة بأدلة كافية للتدليل على وجودها ، وإذا لم نأخذ بدلالاتها نرتد إلى القراءة الثانية الوضعية المتفردة ، فلا نكاد نعرف من التاريخ الكوني معناه الحقيقي فالقراءة الاولى لا تطلب فقط من الإيمان بوجود الله ، ولكنها توجه إلى ألوهية الخلق والتكوين الكوني وارتباط المصير الإنساني بالتخليق الكوني كله ، أي منهجية الخلق المستوعبة لمنهجية الأشياء الموضوعية التي نقرأها بالقلم .

فنجمع بين منهجية الخلق (بالله خالقا) ومنهجية الشيئية التي يرصدها ويسطرها (القلم) في قراءة كونية واحدة فيتحقق الإطار الإيماني الشامل وإلا صارت المنهجية قراطيس انتقائية تميل بتحيز ذاتي إلى القراءة الثانية دون الأولى .

إن العالم ليخرج من أزمته الفكرية والحضارية يحتاج لإدراك البعد الكوني بمعناه الغيبي في تركيب الوجود ومصيره وهذه هي مهمة القراءة الأولى التي تبدو للبعض قراءة يجب استبعادها من الدائرة العلمية . المهمه كبيرة ، والتحدي ضخم ومتسعا باتساع هذه الكونية ، وبدايتها الجمع بين القراءتين وغايتها

أسلمة المعرفة ليعم الرشد ويسود الحق وينتشر الهدى ، وتشرق الأرض بنور الإيمان والقرآن واستمرارنا في الحوارات العلمية الهادفة والتطبيقات المنهجية سوف يؤدي إلى إزالة هذه العقبة وغيرها من العقبات من طريقنا ، وتعامل أصحاب التخصصات المختلفة مع " منهجية القرآن المعرفية " سوف يؤدي إلى الكشف عن جوانبها ، وإقناع العلماء والباحثين بصحتها .

والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

١- انظر تفسير الآية في التفسير الكبير لفخر الدين الرازي (١٣ج٣٢)

٢- كثيرة هي الكتب والدراسات التي تناولت عناصرالعقيدة والإيمان باعتبارها قاعدة لمنطلقات الإنسان المسلم الفكرية ، وقاعدة لرؤيته وتصوره للكون والحياة والإنسان وفي مقدمة هذه البحوث والكتب التي أعدت لبيان هذه القضية ، كتاب رسالة التوحيد ، لمحمد عبده و " الوحي المحمدي " لرشيد رضا ، و " نظام الإسلام العقائدي " للشيخ محمد المبارك "، " والعقائد " الأستاذ / حسن البنا و " عقيدة المسلم " للشيخ الغزالي ، " وقصة الإيمان " للشيخ الجسر " والعدالة الاجتماعية " للأستاذ / سيد قطب ، و" التصور الإسلامي للوجود " د / حسن اللحياري ، وغيرها .

٣- فكرة الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون والاصطلاح عليها وردت عند الحارث المحاسبي بشكل مجمل في كتابه " العقل وفهم القرآن " حيث أشار رحمه الله إلى أن فهم القرآن يحتاج فيما يحتاج إلى فهم الكون كما أن الفخر الرازي قد بنى تفسيره الكبير مفاتيح الغيب انطلاقا من هذه الفكرة وكان يعتذر بذلك ، وكان يصوغ باستمرار ما اشتمل عليه تفسير من علوم وفنون كونية تتصل بالهيئات والفلك والنفس والروح والعلوم النقلية والعقلية والطبيعية وسواها بنفس الفكرة كأنه كان يؤكد باستمرار إن كان رد كل المعارف التي يتوصل الإنسان إليها القرآن الكريم واستنباطها منه وفهمه بها ، ويمكن الاطلاع على ذلك في مواضع عديدة من تفسيره وخاصة في مقدماته ، بل إنه جاوز ذلك إلى حد تصنيف جميع العلوم والمعارف بالنسبة للقرآن إلى

أصناف ثلاثة : فعلوم تستمد منه ، وعلوم يفهم بها ويفسر وعلوم تستند إليها بشكل من الأشكال ، ويراجع تفسير التنوير للشيخ ابن عاشور ، وكذلك أكد هذا المعنى علماء كثيرون ومفسرون متعددون لكن من أهم الباحثين الذين بلوروا هذه الفكرة في عصرنا هذا وحاولوا تقديمها بشكل نظرية متكاملة ذات مراحل متعددة تنتهي بالدمج بين القراءتين هو أخونا الأستاذ / محمد أبو القاسم حاج حمد ، حيث تناولها في كتبه الثلاثة : العالمية الإسلامية الثانية المطبوع سنة ١٩٧٩م في دار المسيرة – بيروت وكتابه الأزمة الفكرية في الواقع العربي الراهن ، وكتابه منهجية القرآن المعرفية وكلاهما قيد الإعداد للنشر لدى المعهد العالمي للفكر الاسلامي .

وبقطع النظر عن الاختلافات في بعض التفاصيل ، فإن الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون يعتبر المنطلق الأساس لأفكار اسلمة المعرفة التي تقوم سياسات ونشاطات المعهد العالمي للفكر الإسلامي عليها .

والجمع بين القراءتين كان هو المنهجية البارزة للصدر الأول وكان مصدر قوتهم المتمثل في الربط بين النص والواقع بطريقة جعلتهم يفهمون النص فهما سليما مكنهم من بناء تلك الحضارة الشامخة التي حققوا بها شهودهم الحضاري في العالم قبل أن تظهر تلك العلوم الوسيطة التي تحولت إلى حائل بين العقل المسلم والنص الموحي ، فالجمع بين القراءتين بالنسبه للسلف الصالح منحيته التفاعل السليم بين العقل المهتدي والنص المعصوم والواقع المتغير تفاعلا جعل من فقه التنزيل وفهمه وآليات ربطه بالواقع وترشيد سبل الحياة بقيمه الأساس السليم للحضارة الإسلامية وما اختلا منهج الجمع بين القراءتين إلابعد أن ظهرت المعارف الوسيطة أو النصوص الموازية التي انشغل العقل المسلم بها عن

النص القرآني أو عن الكون وقضاياه ، فأدي ذلك إلى نوع من الفصام بين النص والواقع وفهم كل منهما فهما خاصا منفصلا عن الآخر ومنعزلا عنه .

٤- أنظر تفسير الآية في التفسير الكبير لفخر الدين الرازي (١٣ - ٣٢)

٥- هناك فرق كبير بين تأكيدات إسلامية المعرفة على أنها تقوم على الجمع بين القراءتين حيث تتخذ الوحي مصدرا أساسيا للمعرفة تقرأ به الكون وتتخذ من الكون وسنته وقوانينه عونا على فهم الوحي ففي إطار القراءتين والجمع بينهما تبنى إسلامية المعرفة ذاتها وتقيم قواعدها وهي تفارق مفهوم الإعجاز العلمي بأنها قضية منهجية تنطلق من القرآن الكريم بالاتجاه العلمي والمعرفة من منطلق الاستيعاب والتجاوز ، أما الاعجاز العلمي فيندرج في إطار المحاولات الجزئية للتفسير والتأويل وتدخل في إطار اتجاهات التوفيق بين العلم والقرآن ومحاولات الحصول على نوع من الأسانيد العلمية لبيان صحة ما ورد في القرآن الكريم وهذا الجهد مع اشتماله على بعض الفوائد إلا أنه جهد ينطلق من العلم باتجاه القرآن الكريم ولا ينطلق من القرآن الكريم باتجاه العلم لمحاولة إنقاذه وإخراجه من دائرة الاستلاب الوضعي ، كما أن عمليات البحث في إطار الإعجاز العلمي لا تتخذ شكلا منهجيا بل هي أمور انتقائية يقوم الإنسان في إطارها بعملية انتقاء يقارب من خلالها وبطريقة القياس بين بعض القضايا العلمية والآيات القرآنية وهذا شيء والاتجاه المنهجي الذي تتبناه اسلامية المعرفة شيء آخر ولذلك فإننا نود أن نؤكد الفارق الكبير بين توجه إسلامية المعرفة المنهجي وتوجهات الإعجاز العلمي الانتقائية التي تكاد أهدافها تنحصر بالانطلاق من بعض الخصائص العلمية لإثبات عدم تعارض المقولات الإسلامية والآيات الدالة عليها والاكتشافات العلمية وذلك في أحسن أحواله يمكن أن

ينـدرج في إطـار محـاولات التـأويل والتفســير العصــري المحوطــة بكثــير مــن الاحتمالات .

٦–حديث " أشد الناس عذابا يوم القيامة .."

أخرجه النسائي في سننه ، كتـاب الإيمـان وشـرائعه ، بـاب ذكـر أشـد النـاس عذابا (٥٣–٥٦) .

٧– حديث : لولا قومـك حديثـو عهـد بـالكفر .."أخرجـه النسـائي فيسـنته كتاب الزكاة ، باب بناء الكعبة (٢٩٠٠) من حديـث عائشـة ، بلفـظ " لـولا حداثة عهد قومك بالكفر لنقضت البيت فبنيته على أساس إبراهيم عليه السـلام وجعلت له خلفا ..."

٨– راجع رسالتنا " إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم " للاطلاع على تعريف أسلمة المعرفة .

٩– إن فهم الأطوار التاريخية فهمـا قائمـا علـى التعـاقب والتكـرار يـؤدي إلى قناعات فكرية سكونية ترى أن الأحداث تتكرر في إطار دورة تجعـل بالإمكـان تقديـم حلـول متكـررة أيضـا يقطـع النظـر عـن مرحـــلة إنتـاج تلـك الحلـول وكيفيتها ، أمـا الفكـر القـائم علـى النظـر إلى التـاريخ علـى أنـه يمثـل صـيرورة وتغيرات كيفية ، فإنه يواجه العقل الإنسـاني بتحديـات مسـتمرة تفـرض عليـه تقديم حلول متجددة والرجـوع المسـتمر والدائـم إلى النـص المطلـق الـذي هـو القـرآن الكريـم وبالنسـبة للمسـلم سـنعرض عليـه أفكـار الصـيرورة والارتبـاط المستمر بالقرآن العظيم لأنه هو الذي يمكن أن يمده بالحلول المتجددة باستمرار.